# وحدة السياق فى سورة القيامة

**أ.د . حسن طبل**

أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد الأدبى والأدب المقارن

**تمهيـــد :**

تمثل «وحدة السورة» فى القرآن الكريم وجها من وجوه إعجازه وبرهانا ساطعا على صدق تنزله من لدن حكيم خبير ؛ إذ إن تحقق هذه الوحدة فى كل سور القرآن التى لم يتنزل الأعم الأغلب منها دفعة واحدة ، أو فى تاريخ نزول واحد هو – دون ريب – أحد الأدلة القاطعة على أن هذا البيان القرآنى إنما هو تنزيل سماوى محكم ، وتصميم إلهى تعجز دونه كل طاقات البشر !!

غير أن الكشف عن خيوط التواصل أو أسباب التلاحم المحققة لتلك الوحدة فى سياق كل سورة ليس دائما مطمحا دانيا يناله كل راغب وتظفر به أدنى محاولة ، إذ إن هذه الخيوط أو الأسباب تتسم فى كثير من السياقات بالدقة والخفاء ، الأمر الذى تكون معه صعوبة الربط بين جزئيات السورة الواحدة والوقوف على طبيعة الوحدة فيها .

يقول برهان الدين البقاعى فى صعوبة هذا الربط :

«للإعجاز القرآنى طريقان : أحدهما : نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب ، والثانى : نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب ، والأول أقرب تناولا وأسهل تذوقا ، فإن كل من سمع القرآن من ذكى وغبى يهتز لمعانيه وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط ورهبة مع انبساط ... ثم إن عبر الفطِن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها خفى عليه وجه ذلك ، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض ، متباينة المقاصد فظن أنها متنافرة ... فإذا ما استعان الله ، وأدام الطرق لباب الفرج بإنعام التأمل وإظهار العجز انفتح له ذلك الباب ورأى أن المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف بديعة الرصف ، ووقف على الحق من معانى آيات حار فيها المفسرون» (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور : جـ ١/١١ – ١٣ بتصرف) .

والواقع أن هذه الصعوبة أو الإشكالية التى حدد سببها وأوضح طريق تذليلها البقاعى قد بلغت ذروة تحققها فى سورة القيامة الأمر الذى يدعونا إلى التوقف – فيما يلى من صفحات

هذا البحث – لتحديد موطن هذه الإشكالية فى سياق هذه السورة ، وتأمل ما ذكره المفسرون من آراء بصدد حلها ، كى نصل من خلال هذا التأمل إلى استخلاص الرأى الذى نرتضية فى ظل تمثل الغرض الذى سيقت له السورة من جهة ، وملاحظة مدى تضافر عناصر السياق فى تأديته من جهة أخرى متوسلين إلى ذلك كله بما أوصى به البقاعى من الاستعانة بالله ومداومة الطرق وإنعام التأمل :

* * * *

إن المتأمل فى سياق هذه السورة يثور فى ذهنه ذلك التساؤل الذى طرحه غير واحد من المفسرين عن وجه تضمنه لتلك الآيات الأربع التى توجه فيها النهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كيلا يحرك لسانه عند تلقى الوحى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾ تلك الآيات التى تبدو وكأنها تقطع اطراد هذا السياق وتخرج عن مسار وحداته التى أمحضت من أول السورة إلى آخرها (قبل هذا النهى وبعده) للإخبار عن يوم القيامة : تأكيدا لحقيقته ، ووصفا لبعض أحواله ودحضا لمماراة الممترين فيه !!

**لقد ادعى بعض قدماء الروافض** أنه ليس ثمة مناسبة بين تلك الآيات وسياق السورة ، ورجحوا بالتالى أن يكون قد سقط من تلك السورة شئ محتجين بذلك لما زعموه من أن القرآن قد غير فى ترتيبه وبدّل ، وزيد فيه ونقص عنه(١) .

**وذهب القفال** إلى أن الخطاب فى تلك الآيات ليس للرسول ﷺ ، بل هو خطاب للإنسان المذكور قبل تلك الآيات فى قوله سبحانه ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ ، والمعنى المراد هو أن ذلك الإنسان حين يعرض عليه كتابه يوم القيامة يسرع فى قراءته ويتلجلج خوفا ، فيقال له : لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا أن نجمع عملك ، وأن نقرأه عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت ، ثم إن علينا بيان أمر هذا الإنسان وما يتعلق بعقوبته(٢) .

**والواقع أن هذا الرأى الذى أورده القفال** فى تأويل تلك الآيات لا يقل تعسفا وبعدا عن القبول عما ادعاه بصددها الروافض ، فإذا كان ما زعمه هؤلاء يخالف ما أجمع عليه أئمة السلف من أن ترتيب الآيات فى سور القرآن هو بتوقيف من الله عز وجل (وهو ما يعنى

أن ثمة حكما وأسراراً وراء هذا الترتيب فى كل سورة على حده(٣) – فإن ما ذهب إليه القفال يخالف ما وردت به الأحاديث الصحيحة فى سبب نزول تلك الآيات ، والتى منها على سبيل المثال ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : «كان النبى ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحى كان يحرك به لسانه وشفتيه ، فيشتد عليه ذلك ، فكان يعرف ذلك فيه فأنزل الله هذه الآية فى لا أقسم بيوم القيامة : لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه»(٤) !!

**أما المفسرون الذين حاولوا الكشف عن وجه مناسبة هذه الآيات لسياق السورة** فقد تمخضت محاولاتهم عن عدة آراء نجملها فيما يلى :

١ – أن الاستعجال المنهى عنه فى تلك الآيات قد اتفق للرسول ﷺ عند تلقيه للآيات السابقة عليها ، ومن ثم نهى عن ذلك الاستعجال فى هذا الوقت ، ثم عاد الكلام بعد ذلك إلى تكملة ما ابتدئ به ، وذلك كما أن المدرس إذا كان يلقى على تلميذه شيئا فأخذ التلميذ يلتفت يمينا وشمالا فيقول المدرس له : لا تلتفت يمينا وشمالاً ثم يعود إلى تكملة الدرس ، فإذا نقل ذلك الدرس ، ونقل هذا النهى فى أثنائه فإن من لم يعرف السبب يظن أن وقوع النهى فيه غير مناسب ، أما من عرف ذلك فإنه يدرك وجه مناسبته .

٢ – أن النهى عن هذا الاستعجال قد وقع بين حبى العاجلة : حبها الذى تضمنه قوله سبحانه : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ تلويحا ، وحبها الذى آذن به قوله : ﴿ كلا بل تحبون العاجلة ﴾ تصريحا ، وفى توسطه بين هذين الحبين تدرج ومبالغة فى التقريع ؛ إذ هو يدل على أن العجلة إذا لم تجز فى القرآن وهو شفاء ورحمة فإنها لا تجوز من باب أولى فيما هو فجور وثبور .. فهذا النهى إذن هو استطراد يؤدى فى موقعه مؤدى الاعتراض وأبلغ .

٣ – أن هذا النهى يرتبط بالآيتين السابقتين عليه : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره ﴾ فكأنه سبحانه يقول لنبيه ﷺ : إذا كان غرضك من هذا التعجيل أن تعرفهم قبح ما هم عليه ، فإن هذه المعرفة حاصلة عندهم ، فلم يبق إذن لهذه العجلة فائدة !!

٤ – أنه يرتبط بقوله سبحانه ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ . فكأنه عز وجل يقول لنبيه عليه السلام إن الكافر يفر من الله تعالى إلى غيره ، وأما أنت فكن كالمضاد له

فيجب أن تفر من غير الله إلى الله ، فلا تستعن فى طلب الحفظ بالتكرار بل اطلبه من الله تعالى .

٥ – أن النفس لما تقدم ذكرها فى أول السورة ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ عدل فى تلك الآيات إلى ذكر نفس المصطفى ﷺ على سبيل المقارنه . فكأنه قيل : هذا شأن النفوس ، وأنت يا محمد نفسك أشرف النفوس فلتأخذ بأكمل الأحوال(٥) .

**ولعلنا نلاحظ** أن هذه الآراء – على كثرتها – لم تجب إجابه شافية عن التساؤل المطروح حول وجه المناسبة بين هذا النهى وسياق السورة . أما الأول (وهو ما ردده كثير من المفسرين) فلأنه لا يعدو أن يكون بيانا لسبب نزول الآيات ، الأمر الذى يظل التساؤل معه وارد عن وجه ارتباطها المعنوى – مع نزولها لهذا السبب – بما سبقها وما لحق بها من آيات فى سياق السورة ، فآيات هذا الذكر الحكيم – كما قيل بحق – هى بحسب الوقائع المتفرقة نزولا ، وبحسب الحكمة فى سياقاتها ترتيبا(٦) ، وأما بقية الآراء فلأنها (فضلا عما فى كثير منها من تعسف كما أشار الحافظ بن حجر)(٧) لم تتمخض إلا عن مناسبات جزئية ترتبط الآيات الأربع فى ظل كل منها بآية بعينها أو بعنصر بذاته من عناصر السياق فى تلك السورة الكريمة ، أى أن واحدا من هذه الآراء لم ينظر إلى هذا السياق بوصفة برمته وحدة كلية تتآزر جزئياتها وتتضافر عناصرها – بما فيها النهى عن العجلة – فى تأدية غرض واحد!!

**وبداية نود الإشارة** إلى أن هذا النهى لم يرد فى القرآن الكريم إلا فى موضع آخر خلاف هذا الموضع ، وهو قوله جل شأنه فى سورة طه : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما ﴾(٨) (طه : ١١٤) .

وبتأمل السياق الذى وردت عقبه تلك الآية يتبين لنا أنه يتشابه إلى حد كبير مع طبيعة السياق فى السورة التى نحن بصددها من حيث دورانه حول يوم القيامة ، ووصفه لبعض مشاهده ، وإخباره عن حقيقة المصير المحتوم لكل من المؤمنين به والمماريين فيه : ﴿ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما . ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا . فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا . يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له

وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا . يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما . وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما . وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا . فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن ... الآية ﴾ (طه : ١٠٢ - ١١٤) .

**إن دوران السياق حول يوم القيامة فى هذين الموضعين اللذين ورد فيهما النهى عن التعجل بالقرآن** ليشعر أنه قد كانت هناك «علاقة ما» بين الأمرين فى نفس المصطفى ﷺ ، ولعل هذه العلاقة - والله أعلم - هى أن مراء الممترين من مشركى قومه فى هذا اليوم قد كان من أقوى الأسباب أو المثيرات التى تدفعه إلى هذا التعجل ، ولعل مما يوضح هذه العلاقة أن هؤلاء المشركين كثيرا ما كانوا يلجئون فى ثنايا هذا المراء وإمعانا فيه إلى تعجل هذا اليوم وهذا ما أخبرت عنه آيات كثيره منها على سبيل المثال قوله سبحانه ﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ (يونس : ٥١) وقوله : ﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ﴾ (الشورى : ١٧ - ١٨) .

فكأن تعجله ﷺ بالقرآن قد كان بمثابة رد فعل لتعجلهم لهذا اليوم الذى يمترون فيه ، تشوفا منه إلى مزيد من الوحى السماوى لعله يتلقى ما يدعمه فى استئصال بواعث هذا المراء من نفوسهم أو يبشره باقتراب معاجلتهم بما يتعجلونه .

ولعل ما يدعم هذه العلاقة كذلك أن النبى ﷺ لم يُنْهَ عن التعجل إلا فى أربعة مواضع من القرآن الكريم جاء فى موضعين منها متعلقا بالقرآن وهما الموضعان السابقان :

﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ (القيامة : ١٦)

﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ (طه : ١١٤)

وجاء فى الموضعين الآخرين متعلقا بمصير هؤلاء الممارين فى يوم القيامة ، ومقترنا فى الوقت ذاته بما يطمئنه ﷺ - كيلا يتعجل - إلى إقتراب هذا المصير ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾ (مريم : ٨٤)

﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ... ﴾ (الأحقاف : ٣٥)

**هل نستطيع القول - فى ضوء ما تقدم - إن باعث هذه العجلة بصورتيها فى نفسه ﷺ هو تعجل هؤلاء الضالين ليوم القيامة ؟**

الواقع أن فى سياق السورة التى نحن بصددها ما يدعم هذا القول ، ولتجلية ذلك نود أن نتأمل ما جرى عليه المفسرون فى تفسيرهم لقوله سبحانه قبل نهى الرسول عن العجلة بالقرآن : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل أيان يوم القيامة ﴾ لقد اتفق هؤلاء المفسرون على أن الفعل ﴿ يفجر ﴾ فى الآية الأولى هو من الفجور بمعنى الميل عن الحق والانبعاث فى الشهوات والمعاصى ، وأن لفظة «أمامه» إنما تعنى الزمان لا المكان فى هذا السياق ، ثم اختلفوا بعد ذلك فى تفسير المراد بالآية الكريمة تبعا لاختلافهم فى تحديد مرجع الضمير المذكور فى هذه اللفظة : وهل هو الإنسان المشار إليه فى الآية ؟ أم هو يوم القيامة ؟ أم هو الله سبحانه وتعالى ؟ - فمن أقوالهم فى تفسير الآية :

- أن هذا الإنسان الذى ينكر البعث يريد أن يدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان .
- أنه يقدم الذنب ويؤخر التوبة حتى يأتيه الموت على شر أحواله .
- أنه يريد الحياة ليتعاطى الفجور فيها .
- أنه يريد أن يكذب بما أمامه من البعث والحساب .
- أنه يريد شهواته ليفجر فى تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدى يوم القيامة وهو لا يعرف قدر الضرر الذى هو فيه .
- أنه يريد أن يعمل الفجور بين يدى اله تعالى وبمرأى منه ومسمع ويطمع فى أن لا يؤاخذه أو يجازيه بفجوره(١٠) .

**ونود أن نبادر بالإشارة** إلى أن الانبعاث فى الشهوات والمعاصى هو أحد معنيين تحتملهما دلالة الفعل ﴿يفجر﴾ فى الآية الكريمة ؛ إذ أن هذا الفعل قد يكون من فجر فجورا بهذا المعنى السابق الذى ركز عليه المفسرون ، كما قد يكون من فجر الشئ يفجره فجرا بمعنى شقه . يقول الراغب فى مادة هذا الفعل :

«الفجر : شق الشئ شقا واسعا كفجر الإنسان السَّكْر . يقال : فجرته فانفجر وفجّرته فتفجّر ... والفجور شق ستر الديانة : يقال : فجر فجورا فهو فاجر ، وجمعه فجار وفجرة»(١١) .

وجدير بالذكر أن الراغب قد أورد الآية الكريمة بين الشواهد التى ساقها على المعنى الثانى وردد فى تفسيرها بعض الأقوال السابقة ، أى أنه كان يرى شأنه شأن غيره من المفسرين أن الإرادة التى تخبرنا عنها الآية هى – فحسب – إرادة الفجور !!

**وفى تصورى** – والله أعلم – أن هذا المعنى الذى أغفله المفسرون (الفجر بمعنى الشق) هو الأقرب إلى تفسير الآية الكريمة – وسوف يتبين لنا بعد قليل أنه الأكثر ملاءمة لطبيعة السياق فى سورة القيامة – فالضمير فى لفظة ﴿ أمامه ﴾ يعود على الإنسان الذى يمارى فى يوم القيامة أما هذه اللفظة ذاتها (وهى تعنى الزمان كما أسلفنا) فإنها تقع مفعولا به لفعل الفجر بهذا المعنى كما وقعت لفظة اليوم مفعولا به لفعل الخوف فى قوله سبحانه ﴿ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ﴾ (الإنسان : ١٠) ومغزى ذلك أن الآية الكريمة – إذا صح هذا الفهم – تصور تعجل هذا الإنسان ليوم القيامة ، وتخبر عن أنه فى غمار هذا التعجل يود لو استطاع أن يشق حجب المستقبل أمامه كى يستطلع حقيقة هذا اليوم .

ومما يؤنس لفهم الآية الكريمة على هذا النحو (فضلا عن وضوح المناسبة بينها وبين نهى النبى ﷺ عن التعجل بالقرآن) ما يلى :-

أ – أن مادة (ف – ج – ر) لم ترد بصيغة الفعل فى القرآن الكريم إلا بمعنى الشق ، فلقد وردت مع اختلاف فى الصيغة فى تسعة مواضع خلافا لهذا الموضع وهى قوله سبحانه :-

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ (الإسراء : ٩٠)

﴿ وفجرنا خلالهما نهرا ﴾ (الكهف : ٣٣)

﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴾ (يس: ٣٤)

﴿ وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ (القمر : ١٢)

﴿ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾ (الإنسان : ٦)

﴿ ...فيفجر الأنهار خلالها تفجيرا ﴾ (الإسراء : ٩١)

﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ (الإنفطار : ٣)

﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ (البقرة : ٧٤)

﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ﴾ (البقرة : ٦٠)

وإذا كانت صيغة الفعل من تلك المادة قد دلت فى تلك المواضع التسعة على الفجر أو الشق بمعناه الحسى فإن ذلك يطمئن إلى القول بأنها فى الموضوع العاشر الذى نحن بصدده قد وردت للدلالة على إرادة الفجر أو الشق لا على إرادة الفجور .

ب – قوله عز وجل بعد تلك الآية مباشرة إخبارا عن ذلك الإنسان الذى يريد أن يفجر أمامه :

﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ – لقد ذكر المفسرون فى موقع هذه الآية عدة آراء : فلقد قيل إنها جملة حالية من الضمير العائد على الإنسان فى ﴿ يفجر ﴾ وقيل أيضا : إنها جملة مستأنفة جئ بها تعليلا لإرادة هذا الإنسان الدوام على الفجور أو تعجيبا من سؤاله عن وقت يوم القيامة ، وقيل كذلك : إنها بدل من جملة ﴿ يفجر أمامه ﴾(١٢) .

**وعندى – والله أعلم – أن الرأى الأول هو أرجح هذه الآراء** ، فالمعنى فيما نرجح هو أن هذا الإنسان حال سؤاله : أيان يوم القيامة يود لو استطاع أن يفجر أمامه أو أيامه المقبلة تعجلا لهذا اليوم – ولعل مما يؤنس لهذا الرأى أن الرد على مثل هذا السؤال فى القرآن الكريم قد جاء مقرونا فى مواضع كثيرة بالإشارة إلى تعجل سائليه لذلك اليوم(١٣) ، من تلك المواضع قوله عز وجل ﴿ يسألون أيان يوم الدين ، يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون ﴾ (الذاريات : ١٢–١٤)

وقوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون ﴾ (النمل : ٧١–٧٢)

وقوله : ﴿ ... فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا ﴾ (الإسراء : ٥١)

وقوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ..... قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون . أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون﴾ (يونس : ٤٨–٥١)

جـ – ولعل مما يدعم هذا الفهم قوله عز وجل بعد ذلك مباشرة : ﴿ فإذا برق البصر وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ (القيامة : ٧ – ١٠)

لقد سيقت هذه الآيات الأربع للرد على ذلك الإنسان الذى يريد أن يفجر أمامه سائلا أيان يوم القيامة ولعلنا نلاحظ أنها قد عمدت فى هذا الرد إلى مبادرته لا بموعد الحدوث الذى يتساءل عنه ، بل بهذا الحدوث ذاته متمثلا فى ثلاثة من مشاهده (برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر) ثم بالإخبار عن تساؤله مرتاعاً آنذاك (أين المفر) . ولعلنا نلاحظ أيضا ذلك الإيقاع السريع الخاطف السارى فى تلك الآيات (لقصرها من جهه وانعدام حروف المد واللين فى فواصلها وفى كثير من أجزائها من جهه أخرى) ذلك الإيقاع الذى يخيّل للقارئ أو السامع أن هذه المشاهد تتلاحق أو تتسابق سراعا نحو هذا الإنسان ، فإذا أضفنا إلى ذلك دلالة حرف ﴿ الفاء ﴾ الواقعة فى صدر هذه الآيات على التتابع الفورى فى الحدوث ، ثم إيثار ذلك الفعل الموحى بالسرعة الخاطفة (برق) فى الإخبار عن أول مشهد – إذا أضفنا ذلك ترجح لدينا القول بأن هذه الآيات إنما سيقت للرد على إرادة الفجر أو التعجل لا على إرادة الفجور والانغماس فى المعاصى ، أعنى أنها قد سيقت لمجابهة ذلك الإنسان بأنه إنما يستبعد يوماً دانى الحدوث ، ويتعجل أمراً معجّلا فى ذاته ، وأن إرادته المندفعة إلى الأمام نحو الفجر سوف تستحيل سريعا إلى إرادة مندفعة إلى الخلف نحو الفرار !!

د – أخيرا – ولعل مما يدعم هذا الفهم كذلك إيثار وصف الوجوه بالبُسْر أو البسور فى قوله سبحانه بعد ذلك بيانا لمصير هؤلاء الممارين فى يوم القيامة ﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ (القيامة : ٢٤)

لقد ردد غير واحد من المفسرين عند تفسيرهم لتلك الآية مقولة مؤداها : أن الباسل أبلغ أو أشد فى تأدية معنى العبوس من الباسر ، غير أنه لما كان الأول قد غلب استخدامه فى الشجاع إذا اشتدت كلوحته فإن الآية قد عدلت عنه لإيهامه بذلك غير المراد(١٤) .

**والواقع** أن هذه المقولة محل نظر ؛ فنحن لا نسلم بأن لفظة الباسل ـ على إطلاقها ـ أبلغ فى تأدية معنى العبوس من لفظة الباسر ، وذلك فى ضوء ماهو معلوم من أن بلاغة اللفظة أو أبلغيتها إنما ترجع إلى مدى مواءمتها بظلالها وإيحاءاتها الدلالية الخاصة لطبيعة السياق الذى ترد فيه ، كما أنا لا نسلم – من جهة أخرى – بأن السر فى إيثار الآية الكريمة لوصف

الوجوه بالباسر هو - فحسب - لأن فى الوصف بالباسل إيهاماً بغير المراد ؛ إذ إننا لو سلمنا بذلك لسلمنا بالتبعية بأن هذا الإيثار ليست له أية مزية أخرى فوق عدم اللبس أو الإيهام !!

وفى تصورى - والله أعلم - أن الآية الكريمة قد آثرت وصف الوجوه بهذا الوصف (باسرة) لأن مادته اللغوية (فضلا عن دلالتها عن معنى العبوس) تدور حول معنى الاستعجال أو التعجل الذى هو محور من محاور السياق فى سورة القيامة ، ففى تلك المادة تقول معاجم اللغة :

البُسْر : الاستعجال بالشئ قبل أوانه ، وبسر بسورا : عجل ، وبسر الرجل الحاجة : طلبها فى غير أوانها ، وبسر فلان النخلة : لقحها قبل أوان التلقيح ، وبسر الدين : تقاضاه قبل حلول أوانه ، وبسر القرحة : نكأها قبل النضج ، وبسر السقاء : شرب من لبنه قبل أن يروب ، وابتسر الفاكهة أخذها غضة طرية ، وابتسر الرأى : أبداه قبل نضجه ، وقوله عز وجل (ثم عبس وبسر) أى أظهر العبوس قبل أوانه وفى غير وقته(١٥) .

وجدير بالذكر أن الراغب بعد أن أشار إلى دوران هذه المادة حول معنى الإستعجال تساءل عن سر إيثار وصف الوجوه بها فى الآية الكريمة قائلا : «فإن قيل : فقوله (ووجوه يومئذ باسرة) ليس يفعلون ذلك قبل الوقت وقد قلت : إن ذلك يقال فيما كان قبل الوقت ؟ قيل : إن ذلك إشارة إلى حالهم قبل الإنتهاء بهم إلى النار ، فخص لفظ البُسْر تنبيها إلى أن ذلك مع ما ينالهم من بعد يجرى مجرى التكلف ومجرى ما يُفعل قبل وقته»(١٦) .

ولعلنا نحس بما فى إجابة الراغب عن تساؤله السابق من غموض وبعد !! فنحن لا نرى وجها لتطبيق معنى البسر على حال هؤلاء الكفار يوم القيامة . وإلا فأى شئ يتعجلونه أو يتطلبونه قبل أوانه فى ذلك اليوم الذى لا يتوقعون فيه إلا سوء المصير ووخيم العاقبة ؟!

لقد أخبرنا السياق الذى وردت فيه الآية عن مقولة هؤلاء الكفار يوم القيامة : أين المفر ؟ الأمر الذى يترجح معه القول بأن وصف وجوههمْ بالبسْر المتضمن لمعنى التعجل ليس إشارة إلى حالهم فى هذا اليوم - كما ذكر الراغب - بل هو إشارة إلى حالهم فى الدنيا كى تبرز المفارقة بين تعجلهم له قبل وقوعه دونما استعداد له أو إشفاق منه ، وكلوحة وجوههم وتشبثهم بالفرار منه عند هذا الوقوع !!

**... لعلنا عند هذا الحد نستطيع الإجابة عن التساؤل الذى طرحناه فى**

**صدر هذا البحث** عن وجه المناسبة أو الارتباط بين نهى النبى ﷺ عن التعجل بالقرآن وسياق سورة القيامة ، إذ بتأمل هذا النهى فى ضوء ماسبق يتبين لنا أنه قد ورد فى ثنايا الإخبار عن تعجل الكفار ليوم القيامة ، فإذا أضفنا إلى ذلك ماسبق أن رجحناه من أن هذا التعجل قد كان بما يلقيه على صدره ﷺ من هم وأسى من أقوى بواعثه النفسية إلى التعجل – أدركنا أن الآيات الأربع التى تضمنت هذا النهى ليست مجرد استطراد تعوزه وسائل الاتصال بالسياق ، أو نتوء اعتراضى خارج عن مساره ، بل هى خيط أصيل فى نسيجه ، ولبنة أساسية من لبنات بنائه المحكم .

على أن فى هذا الموقع من السياق ما يدل على أن همّ نفس النبى ﷺ بالتعجل على هؤلاء الكفار (الصورة الثانية من تعجله) إنما كان هو الآخر بمثابة رد فعل لتعجلهم ليوم القيامة ، وهذا التعجل هو ما يدل عليه دلالة ضمنية بطريق أسلوب القصر قوله عز وجل بعد ذكر مقدمات هذا اليوم : ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ (آية : ١٢) ثم قوله بعد ذكر مقدمات الموت : ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ (آية : ٣٠) ونود هنا أن نلاحظ :

– أن الرسول ﷺ لم يتوجه إليه الخطاب فى تلك السورة إلا ثلاث مرات إحداها فى النهى السابق والآخريان فى هاتين الآيتين .

– أن هذه المرات الثلاث أو الآيات الست قد وقعت جميعها بعد الإخبار عن تعجل الكافر ليوم القيامة وتساؤله الاستبعادى عن موعد وقوعه .

– أن نسق بناء الجملة المفيد لمعنى القصر فى الآيتين الآخريين هو عينه نسق بنائها فى قوله سبحانه فى آيات النهى : ﴿ إنّ علينا جمعه وقرآنه ... ثم إنّ علينا بيانه ﴾ ، ففيهما كما فى هاتين الآيتين تحقق معنى القصر عن طريق تقديم الجار والمجرور أو الخبر (إلى ربك – علينا) على المبتدأ أو اسم إن (المستقر ، المساق ، جمعه وقرآنه ، بيانه) .

ولعلنا نستطيع القول فى ضوء هذه الملاحظات : إن تلك الآيات الست التى وردت عقب الإخبار عن تعجل الكفار ليوم القيامة قد سيقت لتثبيت قلب النبى ﷺ ومطامنة خاطره فى مواجهة هذا التعجل ، فكأن هذه الآيات تقول له : تذرع بالصبر على ما تكابده من مراء المشركين حول يوم القيامة ، ولا يدفعنّك تعجلهم لوقوعه إلى تعجل نزول القرآن فإن المتكفل بإنزاله هو الخالق عز وجل لا أنت ، ولا إلى التعجل عليهم فإن إليه سبحانه – لا إليك –

توقيت نهايتهم في الدنيا ومستقرهم فى الآخرة .

**إن التساؤل الذى يطرح نفسه علينا الآن هو** : ما الغرض الذى سيقت من أجله تلك السورة ؟ وكيف تضافرت أو توحدت آياتها الأربعون – كل منها فى موقعها من السياق – فى سبيل تأديته ؟

نستطيع القول (استرشادا بتأمل عناصر السياق واستئناسا بماسبق) : إن غرض هذه السورة هو : **دحض صور المراء حول يوم القيامة إقراراً لحقيقة هذا اليوم وتأكيداً لوقوعه من جهة ، وطمأنة لخاطر الرسول ﷺ كيلا يدفعه ذلك المراء إلى التعجل بالقرآن أو بالممترين من جهة أخرى .**

لقد كان لهذا الغرض – بغايتيه – دوره الفعال لا فى إيثار وحدات السياق بظواهرها اللغوية أو الأسلوبية فحسب ، بل كذلك فى إيثار ترتيبها فى ذلك النسق الخاص الذى تشابكت خلاله وتآزرت فى وحدة دلالة متماسكة .

وتجلية لمدى تآزر عناصر السياق فى تأدية هذا الغرض نود أن نتوقف قليلاً لاستنطاق الدلالة أو استشفاف المغزى فى كل ظاهرة من الظواهر الأربع التالية :

أ – الترتيب المعكوس لأطوار الإنسان .

ب – أسلوب الاحتباك فى منتصف السورة .

جـ – نفى القسم فى صدر السورة .

د – تكرار الإضراب فى إثبات حقيقة البعث .

**أ – الترتيب المعكوس :-**

لقد درج البيان القرآنى فى مواطن كثيرة على ذكر الأطوار التى تتعاقب على الإنسان – منذ أن يشاء الخالق عز وجل إيجاده من العدم – بحسب ترتيبها فى الحدوث (الحياة – الموت – البعث أو الحياة الثانية) من ذلك على سبيل المثال قوله تبارك وتعالى :

﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ (البقرة : ٢٨) وقوله ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ (الجاثية : ٢٦) وقوله ﴿وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور﴾

(الحج : ٦٦) **أما السياق الذى نحن بصدده** فقد عكس هذا الترتيب ، فبدأ أولا بإثبات البعث : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوى بنانه ﴾ (٣ – ٤) .

ثم ثنى بذكر حقيقة الموت : ﴿ حتى إذا بلغت التراقى .. إلى ربك يومئذ المساق ﴾ (٢٦ – ٣٠) ثم ختم بالحياة أو النشأة الأولى : ﴿ ألم يك نطفة من منى يمنى ... فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ (٣٧ – ٣٩)

ولعل من اليسير – فى ضوء ما تقدم – إدراك مدى مواءمة هذا الترتيب المعكوس لطبيعة السياق ، فإذا كانت تلك السورة قد سيقت كما أسلفنا لدحض المراء حول يوم القيامة فلقد كان من الطبيعى لتحقيق هذا الغرض على أكمل وجه أن يبدأ سياقها بإثبات حقيقة البعث ، إذ إنه أكثر هذه الأطوار تعرضا لذلك المراء ، وعلى هذا الأساس ذاته جاء الإخبار عن أول تلك الأطوار حدوثا (النشأة الأولى) فى خاتمة السورة ، إذ إن أحدا من المشركين لم يجادل – أو لم يستطع بالأحرى – فى حقيقة إيجاده من العدم وفى أنه قد كان بعد أن لم يكن ، أما الموت فقد جاء ذكره وسطا بين هذين الطورين ، لا لتوسطه بينهما فى واقع الأمر أو فى ترتيب الحدوث فحسب ، بل لتوسطه بينهما كذلك من حيث درجة تعرضه لمراء هؤلاء المشركين ، لأنهم قد أقروا بحقيقة حدوثه من جهة ، وجادلوا – امتدادا لمرائهم حول البعث – فى حقيقة محدثه عز وجل من جهة أخرى ﴿ وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ... ﴾ (الجاثية : ٢٤)

ونود هنا أن نلاحظ أن تدريج هذه الأطوار الثلاثة بحسب تعرضها لمراء المشركين (كثرة – قلة – فانعداما) قد واكبته وتساوقت مع دلالته الظواهر التالية :

١ – التدرج فى تلبث السياق إزاء هذه الأطوار فبينما استغرق إقرار حقيقة البعث اثنتى عشرة آية (٣ – ١٥) استغرقت حقيقة الموت خمسا (٢٦ – ٣٠) أما النشأة الأولى فلم تستغرق سوى ثلاث (٣٧ – ٣٩) .

٢ – تكرار لفظة الإنسان (الممترى فى يوم القيامة) فى ثنايا إقرار حقيقة البعث إشعارا بتركز المراء وتعدد صوره حول هذه الحقيقة ، فلقد ذكرت هذه اللفظة فى سياق السورة ست مرات جاءت خمس منها فى آيات البعث ، أما السادسة فقد وقعت بين آيات الموت وآيات النشأة الأولى ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ (٣٦) .

٣ – التدرج فى نسبة الأفعال إلى هذا الإنسان ، فبينما أسندت إليه فى آيات البعث خمسة أفعال مبنيه للمعلوم (يحسب – يريد – يسأل – يقول – ألقى) أسند إلى ضميره فعل واحد فى آيات الموت ﴿ وظن أنه الفراق ﴾ أما فى آيات النشأة الأولى فلم يسند إليه أى فعل حيث أوثر فى تلك الآيات فعل التكوين وفعل الجعل (ألم يك نطفة – ثم كان علقة – فجعل منه الزوجين) وهما للخالق عز وجل وحده .

٤ – أخيرا نود أن نلاحظ أن عدم مراء المشركين حول حقيقة النشأة الأولى لم يكن له أثر فى تأخير الآيات الثلاث التى سيقت للتذكير بها إلى خاتمة السياق فحسب ، بل لقد كان له أثره كذلك فى أمرين هما :-

* – عدم إرداف تلك الآيات بخطاب النبى صلى الله عليه وسلم كما أردفت آيات البعث وآيات الموت (إلى ربك يومئذ المستقر – إلى ربك يومئذ المساق) وقد سبق أن أشرنا إلى أن خطابه ﷺ قد كان لطمأنة خاطره فى مواجهة المراء .

* – اتخاذ حقيقة هذه النشأة دليلا دافعا لتأكيد حقيقة البعث ، وهذا ما يبدو جليا فى إرداف آياتها الثلاث بذلك الاستفهام التقريرى الذى ختمت به السورة ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ .

**ب – أسلوب الاحتباك :-**

تقول المعاجم اللغوية فى مادة (ح – ب – ك) : الحبْك : الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة فى الثوب ، يقال : حبك الشئ حبكا : أحكمه ، وحبك العقدة : قوى عقدها ووثقها ، والاحتباك : شد الإزار على الوسط ، والتحبيك : التوثيق ، والحبْكة : بضم الحاء : هى الحبل الذى يشد به على الوسط(١٧) .

ويلحظ من هذه الدلالة فيما يبدو – كما سنرى بعد قليل – أطلق مصطلح ﴿ الاحتباك ﴾ فى تراثنا البلاغى على كل أسلوب يراد فيه إقامة تقابل بين أمرين ، غير أن هذا التقابل لا يتحقق على مستوى ظاهرة العبارة أو البنية السطحية لهذا الأسلوب ، بل إن إدراكه أو تمثل الغرض منه لا يتأتى إلا إذا استدللنا على المحذوف فى كل من الطرفين بمقابله المثبت فى الطرف الآخر . فالاحتباك هو – كما قيل فى تعريفه–(١٨) : ﴿ أن يجعل الكلام شطرين

ويحذف من كل منهما نظير ما يثبت في الآخر ﴾ .

ومن أمثلة هذا اللون البلاغى فى القرآن الكريم قوله عز وجل : ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إنّ فى ذلك لآيات لقوم يسمعونَ ﴾ (يونس : ٦٧)

ففى هذه الآية الكريمة يمتنّ الخالق سبحانه على عباده بنعمته عليهم فى آيتى الليل والنهار حيث جعل لهم الليل مظلما كى يظفروا فيه بالراحة والسكينة بعد عناء الحركة وشقاء الكدح فى سيل الرزق أثناء النهار ، وجعل لهم النهار مضيئا كى تتهيأ لهم فرص الحركة والعمل ، وتستنير لهم سبل الانتشار والتقلب فى الأرض ، ولعلنا نلاحظ أن الآية قد سلكت مسلك الاحتباك فى إبراز هذا التقابل – النافع للإنسان – بين الآيتين ، حيث حذفت من آية الليل سبب السكون (الإظلام) لدلالة وصف النهار بالضياء (مبصرا) عليه ، ثم حذفت مسبب الضياء أو ما يترتب عليه (الحركة والانتشار فى الأرض) لدلالة السكون فى آية الليل (لتسكنوا فيه) عليه .

**ونجدر الإشارة هنا** إلى أن مزية هذا الأسلوب أو قيمته الفنية لا تتمثل – كما قد يتبادر إلى الذهن – فى كونه صورة من صور الحذف ولونا من ألوان الإيجاز فى التعبير فحسب ، بل إنها تتمثل كذلك فى أنه – فى موقعه – يكون بمسلكه الدلالى الخاص هو الأكثر ملاءمة للسياق ووفاء بالغرض المراد ، فنحن حين نتأمل الآية السابقة يتبين لنا أن اللفظين اللذين أوثر ذكرهما (لتسكنوا – مبصرا) هما – معا – ركيزة المعنى أو الغرض الذى سيقت لتأديته فإذا كان هذا الغرض كما أسلفنا هو امتنان المولى على عباده بنعمه عليهم فى تقلب الليل والنهار فإن مناط ذلك الامتنان فى أولهما هو المسبب لا السبب ، وفى الثانى هو السبب لا المسبب ، أو لنقل بمعنى آخر : إن النعمة الممتنّ بها هى فى آية الليل نعمة السكون لا الظلمة المهيئة له وهى فى آية النهار نعمة الضياء لا الحركة المترتبه عليه .

الوظيفة التعبيرية لمثل هذا الأسلوب – إذن – هى التوصل من خلال المزاوجة بين ظاهرتى الحذف والذكر إلى إبراز الخيطين الأصليين اللذين ينعقد عليهما المعنى وتتوثق بهما علاقة التعبير بالغرض ، فكأن اللفظين اللذين يؤثر ذكرهما فى طرفى التقابل (وهذا وجه تسمية هذا الأسلوب احتباكا) هما بمثابة طرفى الحبكْة التى لا تؤدى وظيفتها فى شد الوسط إلا بعد تلاقيهما وانعقادهما معا .

فى ضوء هذا الاستطراد (الذى أحسسنا بضرورته) نود أن نتوقف لاستجلاء دلالة هذا الأسلوب فى قوله عز وجل فى السورة التى نحن بصددها : ﴿ كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة ﴾ (٢٠ - ٢١)

وتجدر الإشارة فى البداية إلى أن هاتين الآيتين قد وقعتا فى منتصف السورة تماما ، فقبلهما فى السياق تسع عشرة آية ، وبعدهما كذلك تسع عشرة آية ، ولعلهما - والله أعلم بمراده - قد وقعتا هذا الموقع لأن المعنى الذى تتمخضان عنه قد كان - كما سنرى بعد قليل - بمثابة المركز الرئيسى أو المحور الذى تلتف حوله عناصر السياق فى تلك السورة والنواة الأساسية للغرض الذى سيقت لتأديته ، ولعل مما يدعم هذا التصور تحول مسار السياق عند هاتين الآيتين عن طريقى الإفراد والغيبة (أيحسب الإنسان ... بل يريد الإنسان ... بل الإنسان على نفسه بصيرة) إلى طريقى الجمع والخطاب (كلا بل تحبون ... وتذرون)(١٩) فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن السياق قد عاد بعد هاتين الآيتين مرة أخرى إلى طريقى الإفراد والغيبة(٢٠) (وظن ... فلا صدق ولا صلى ، كذب وتولى ، ذهب ، ألم يك ...) - أدركنا خصوصية الدور التعبيرى الذى تنهض به هاتان الآيتان فى سياق السورة الكريمة ، فكأنهما فى مسار هذا السياق - بهذا التحول - بمثابة الصّوة التى يستدل بها السائر على معالم الطريق ...

لقد سلكت الآيتان كما نرى مسلك الاحتباك فى إبراز التقابل بين حب المشركين للعاجلة وإقبالهم عليها من جهة ، وكراهيتهم للآخرة وتركهم لها من جهة أخرى ، حيث أوثر فى أولاهما ذكر الحب كى يدل على كراهيتهم للآخرة فى الثانية ، وأوثر فى الثانية ذكر الترك كى يدل على إقبالهم على العاجلة فى الأولى(٢١) وبالتأمل نتبين قيمة إيثار ذكر الحب والترك (دون الإقبال والكراهية) فى هذا المسلك ، تلك القيمة التى تتجلى فى ضوء ملاحظة ما يلى :

* أن الحب والترك - من جهة - هما ركيزتا المعنى المراد من هذا التقابل ، فهما معا قوام المسلك الضال الذى سلكه هؤلاء المشركون الممارون فى يوم القيامة ، وهما معا كذلك سبب العاقبة الوخيمة التى تنتظرهم عند حلول هذا اليوم ، تلك العاقبة التى لا تترتب على مجرد إقبالهم على العاجلة وكراهيتهم للآخرة ، لأن الإقبال على الأولى دون حب لا يكون أيثاراً لها

وانغماسا مطلقا فى آنياتها الزائلة(٢٢) ، ولأن كراهية الثانية لا تكون سببا لشؤم العاقبة وسوء المصير مالم تستتبع الإعراض الكلى عنها والغفلة المطلقة عن الاستعداد لها .

* أن الحب والترك – من جهة أخرى – هما المحوران اللذان دارت حولهما عناصر السياق فى السورة الكريمة ، فلقد كان حب المشركين للعاجلة – كما سيتضح لنا ذلك بعد قليل – هو مرد مرائهم حول حقيقة البعث وتعجلهم ليوم القيامة ، وسؤالهم المتكرر عن موعد حدوثه ، أما تركهم للآخرة فقد ترتب عليه أو انتظمت فى سلكه كل عناصر النصف الثانى من السياق ، فهذا الترك هو سبب تعلق نفوسهم بالترك هملاً دون تكليف أو حساب ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ وهو أيضا السبب فى غفلتهم عن تذكر الموت أو النشأة الأولى وتركهم التأمل فيهما بوصفهما مقدمتين للآخرة ودليلين دامغين على حتمية حدوثها ، وهذا الترك كذلك هو سر تركهم الأعمال الصالحة المنجية فيها ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ وتركهم الإقبال عليها أو الاستجابة للتذكير الصادق بها ، فهم لم يجعلوها – كالعاجلة التى يحبونها – نصب أعينهم وقبلة وجوههم بل لقد استدبروها واستدبروا الداعين إلى التسليم بها فجعلوهم كما جعلوها وراءهم أو من خلف ظهورهم ﴿ ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ ومن ثم كان جزاء وفاقا لهذا الاستدبار أن يتوقعوا مداهمة العذاب لهم – عند حلولها – لا من الأمام بل من الخلف ﴿ ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ فالفاقرة هى كما قيل(٢٤) قاصمة الظهر ، يقال : فقرته الفاقرة أى نزلت به داهية عظيمة كسرت فقار ظهره!! ... على هذا النحو دارت جل عناصر السياق فى تلك السورة حول حب المشركين للعاجلة وتركهم للآخرة فكأن الحب والترك هما فى نسيج هذا السياق بمثابة خيطين أصيلين يتشابك أولهما مع بدايته (نفى القسم) ويتواصل الآخر مع نهايته ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ ويلتقيان (أو ينعقدان) عند المنتصف فى ثنايا هذا التقابل المائل فى الآيتين!!

* أن الحب والترك – من جهة أخيرة – هما الدليلان اللذان ارتكز عليهما السياق فى دحضه لمراء المشركين حول يوم القيامة (الغرض الذى سيقت من أجله السورة) وسوف نرى عند تأمل الإضراب المتكرر وجه الاستدلال بالحب فى أولى الآيتين ، أما وجه الاستدلال بالترك فى الثانية فهو ما يتجلى فى ضوء ملاحظة أمرين :

**الأول** : إيثار مادة الترك فى الفعل ﴿ وتذرون ﴾ دون أى مادة أخرى بديلة كالنفى أو

الإنكار مثلا (تنفون – تنكرون) .

**الثانى** : إيثار إيقاع هذا الفعل على ﴿ **الآخرة** ﴾ ذاتها لا على الاستعداد لها أو الإقبال عليها أو التأمل فى مقدماتها أو ما إلى ذلك من الأعمال التى لم يزاولها هؤلاء المشركون فعلا كما أوضحنا فى الفقرة السابقة ، ففى هذين الإيثارين – والله أعلم – إشعار بأن حقيقة الآخرة ماثلة حتى فى نفوس هؤلاء المشركين لا يستطيعون لها دفعا ولا يملكون إزاءها نفيا ، وأن صور مرائهم فيها ليست فى حقيقة الأمر إلا محاولات يائسة لاقتلاع جذورها من دخائلهم ؛ إذ من المسلم به أن مادة الترك إنما تعنى الطرح أو الاستدبار لا النفى أو الإنكار ، ومغزى ذلك أن ترك هؤلاء المشركين للآخرة لا يعنى امّحاء صورتها فى نفوسهم أو إلغاء وجودها فى بواطنهم ، وإنما هو فى واقع الأمر دليل دامغ على حقيقة هذا الوجود !!

**هل نستطيع القول فى ضوء هذه الآية الكريمة** : إن السياق قد عمد فى إقراره لحقيقة الآخرة إلى تعرية نفوس الممارين فيها للكشف عن مثول تلك الحقيقة – على نحو ما – فيها ؟ وهل يحق لنا أن نلاحظ أثر هذه التعرية فى طمأنة خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم كيلا تؤسيه كثرة المراء ؟

لعل فى النقطتين التاليتين ما يدعم هذا القول :

**جـ – نفى القسم فى صدر السورة :**

﴿ **لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾

لقد تعددت صور الخلاف بين المفسرين حول هاتين الآيتين ، فقد اتفقوا على أن ﴿ لا ﴾ فى الآية الثانية هى للنفى ، أما فى الآية الأولى فقد اختلفوا حولها **فلقد قيل – فى رأى – إنها** زائدة كما زيدت فى قوله سبحانه: ﴿ **لئلا يعلم أهل الكتاب** ﴾ وقوله : ﴿ **ما منعك ألا تسجد** ﴾ ، وقيل – فى رأى ثان – إنها لام الابتداء أشبعت فتحتها فظهرت الألف وأقسم خبر لمبتدأ محذوف والمعنى : لأنا أقسم ، وقيل – فى رأى ثالث – إنها للنفى ، غير أن القائلين بهذا الرأى اختلفوا فى تحديد المنفى بها ،**فلقد قيل** : إنها لنفى كلام سابق عليها ، كأن المشركين حين أنكروا البعث قيل لهم : لا . ليس الأمر على ما ذكرتم ثم قيل : أقسم بيوم القيامة ، أى أن أصحاب هذا الرأى يرون ما يراه أصحاب الرأيين السابقين من أن الآية الكريمة قد سيقت لإثبات الإقسام بيوم القيامة ، وعلى هذا الأساس قيل : إن الله عز وجل

أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة ، **وقيل فى رأى آخر** : إن «لا» ليست لنفى كلام سابق على القسم بل هى لنفى القسم ذاته والتقدير : إنى لا أقسم بيوم القيامة تعظيما له : فهو أعظم وأجل من أن يقسم عليه ، أو لا أقسم عليه لإثباته فهو أظهر وأجلى من أن يثبته القسم .

**كما اختلفوا فى تفسير المراد بالنفس اللوامة** :- فلقد قيل : إنها كل نفس برة كانت أو فاجرة ، وقيل أيضا : هى النفس التقية التى تلوم النفس العاصية يوم القيامة وقيل كذلك : هى النفوس الشريفة التى لا تزال تلوم نفسها على ما صدر منها من المعاصى يوم القيامة ، وقيل هى نفس آدم عليه السلام التى لم تزل تلوم على فعلها الذى خرجت به من الجنة .

**كما اختلفوا كذلك حول وجه المناسبة بين يوم القيامة والنفس اللوامة** (تبعا لاختلافهم حول المراد بتلك النفس) ومما قيل فى ذلك :

* أن النفس اللوامة هى صاحبة الفوز والنجاة يوم القيامة .

* أن المقصود من إقامة يوم القيامة إظهار أحوال النفس اللوامة أعنى سعادتها وشقاوتها .

* أن أكثر لوم النفس إنما يقع فى ذلك اليوم ، فإن من طلبه الملك طلب عرض وحساب يلوم نفسه فى كونه لم يبالغ فى العمل بما يرضى الملك والإخلاص فى موالاته(٢٥) .

**ولعلنا فى ضوء طبيعة الغرض الذى سيقت من أجله السورة** ، واستئناسا بما انتهينا إليه فى الفقرة السابقة نستطيع وسط غبار هذا الخلاف المحتدم تلمس الطريق إلى فهم المراد من الآيتين الكريمتين وإدراك مدى تآزرهما مع غيرهما من عناصر السياق فى وحدة دلالية متماسكة : فنحن نرجح القول بأن «لا» فى كلتا الآيتين لنفى القسم ، كما نميل إلى الرأى القائل بأن نفى القسم لا يفيد تعظيم المقسم عليه بل يفيد تأكيد إثباته والإشعار بأنه – لثبوته فى ذاته – لا يحتاج إلى قسم ؛ إذ إن إثبات المعنى عن طريق نفيه هو آكد لثبوته كما فى قولنا : لا أوصيك بفلان تأكيدا للتوصية ، وقولنا : بغير يمين تأكيدا للثقة التى لا نحتاج معها إلى يمين(٢٦) .

أما النفس اللوامة فلعل المراد بها فى هذا السياق – والله أعلم – نفس ذلك الإنسان الممارى فى يوم القيامة والذى تكرر ذكره فى تلك السورة ست مرات جاءت أولاها بعد ذكر هذه

النفس مباشرة : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ ، أما وصف هذه النفس بكونها ﴿ لوامة ﴾ ذلك الوصف الذى ينبئ عن التكرار والإعادة كما قيل(٢٧) : فهو للدلالة على أنها نفس حائرة قلقة لا يقر لها قرار ، ولا تثبت بهذا الإنسان على حال : فهى إذ تدفعه بحبها للعاجلة إلى المراء حول حقيقة الآخرة لا تستطيع أن تخدع ذاتها عن تلك الحقيقة الثابتة فيها برغم هذا المراء ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ ومن ثم يظل ذلك الإنسان فى صراع دائم بين حقيقة الآخرة التى يدركها وحب العاجلة الذى يدفعه إلى المماراة فيها .

**إننا بناء على ذلك نستبعد الأقوال الثلاثة السابقة التى ذكرها المفسرون فى بيان المناسبة بين يوم القيامة والنفس اللوامة** ، فاللوم أو التلوم فيما نحس ليس وصفا لحال تلك النفس عند تحدّد مصيرها فى هذا اليوم (وهو ما دارت حوله تلك الأقوال) بل هو وصف لتوترها وتقلب أحوال صاحبها فى الدنيا بسبب مثول حقيقة هذا اليوم فيها ، ومؤدى ذلك أن السورة الكريمة إذ قيدت النفس فى تلك الآية بهذا الوصف إنما أرادت المبادرة – تلبية للغرض المسوقة له – بسوق أقوى الأدلة الداحضة لمراء المشركين حول يوم القيامة ، فإذا كان فى نفى القسم بهذا اليوم فى أولى الآيتين تأكيدا لحقيقته وحتمية حدوثه ، فإن فى نفى القسم بالنفس اللوامة فى الآية الثانية (وهذا فيما نرى وجه المناسبة بين الآيتين) تأكيدا لمثول هذه الحقيقة فى نفوس هؤلاء المشركين أو الممترين أعينهم ، الأمر الذى يكشف عن زيف مرائهم حولها ويقوضه من أساسه !!

وإذا كانت الآية الثانية قد أكدت من خلال نفى القسم ثبوت حقيقة الآخرة فى نفوس المشركين فإن الآيات التالية لها قد ارتكزت على هذا الثبوت فى تعريتها لمرائهم حولها . وهذا ما يتجلى من خلال تأمل الظاهرة التالية الماثلة فى تلك الآيات :

**د - تكرار الإضراب :-**

لقد ورد حرف الإضراب ﴿ بل ﴾ ثلاث مرات فى النصف الأول من السياق ، وقع فى أولاها بعد الاستفهام التوبيخى عن مماراة الإنسان فى حقيقة البعث ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ... ﴾ وذلك فى قوله سبحانه فى الآية الخامسة : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾ ووقع فى الثانية فى صدر الآية الرابعة عشرة ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ ووقع فى الثالثة مسبوقا بحرف الردع والزجر ﴿ كلا ﴾ فى الآية العشرين ﴿ كلا بل تحبون العاجلة ﴾ .

**وبداية نود الإشارة** إلى أن أحدا من المفسرين لم يتوقف لبيان نوع الإضراب الثالث ﴿ كلا بل ... ﴾ وهل هو إبطالى أو إنتقالى ؟**أما الإضراب الثانى ﴿ بل الإنسانُ ... ﴾** فإن الذين تعرضوا له منهم رجحوا القول بأنه إنتقالى لا إبطالى ، ومن هؤلاء ابن عطية الذى ينص على أن قوله تعالى : ﴿ **بل الإنسانُ** ﴾ إضراب بمعنى الترك لا على معنى إبطال القول الأول(٢٨) ، وقد أضاف كثير من هؤلاء المفسرين القول بأن الإنتقال فى الآية الكريمة هو على معنى الترقى على أساس أن الحال التى تصورها أو تخبر عنها فى ذلك الإنسان هى أرقى من الحال التى تخبر عنها الآية السابقة عليها ، والتقدير : ينبأ الإنسان بأعماله فى ذلك اليوم بل هو فى الحقيقة لا يحتاج إلى أن يخبره غيره فإنه يومئذ عالم بتفاصيل أحواله شاهد على نفسه(٢٩) ، **أما الإضراب الأول ﴿ بل يريد الإنسانُ ... ﴾** فقد ذهب بعض المفسرين إلى أنه إبطال لإنكار البعث فى الآية السابقة عليه ، والتقدير : دع تعنيفه على هذا الإنكار فإنه أشطّ من ذلك وأنّى يرتدع وهو يريد ليدوم على فجوره(٣٠) . وذهب آخرون إلى أنه لا يعنى الإبطال بل الترك والإنتقال : يقول ابن جزى الكلبى فى ذلك : «وليست بل هنا للإضراب عن الكلام الأول بمعنى إبطاله وإنما هى للخروج منه إلى ما بعده»(٣١) وهذا بعينه ما ارتضاه أبو حيان فى بيانه لمعنى الإضراب فى الآية الكريمة ، فهو يقول فى تعقيبه على رأى صاحب الكشاف : «وقال الزمخشرى : بل يريد عطف على أيحسب فيجوز أن يكون مثله استفهاما وأن يكون إيجابا على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب ... وهذه التقادير الثلاثة لا تظهر وهى متكلفة ، بل المعنى الإخبار عن الإنسان من غير إبطال لمضمون الجملة السابقة»(٣٢) .

**والحقيقة أننا مستأنسين بطبيعة الغرض الذى سيقت له السورة الكريمة وبما ألمحنا إليه فى الفقرة السابقة نرجح** أن الإضرابات الثلاثة (لا الأول والثانى فحسب) لا تفيد معنى الإبطال بل الترك والانتقال ، وأن الانتقال فى ثلاثتها (لا فى الثانى فقط) يتضمن معنى الترقى ، ولتوضيح هذا وذاك وتجلية لطبيعة الدور الذى نهضت به تلك الظاهرة فى سياق السورة الكريمة نود أن نلاحظ ما يلى :-

* أن الإضرابات الثلاثة قد وقعت فى ثنايا الإخبار عن مراء الإنسان حول يوم القيامة ، ذلك الإنسان الذى تكرر ذكره فى الإضرابين الأولين (بل يريد الإنسان ... بل الإنسان)

وأسند الفعل إلى ضميره بعد الالتفات فى الإضراب الثالث(كلا بل تحبون) .

* أن الجانب النفسى أو الشعورى لهذا الإنسان هو مناط هذه الإضرابات الثلاثة ، فمتعلقاتها هى الأحوال الشعورية أو النزوعية التى تنطوى عليها نفس الإنسان والتى يرتبط كل منها بصورة أو بأخرى – بمرائه حول هذا اليوم ، فبينما يخبرنا أولها عن حال الإرادة أو النزوع النفسى إضرابا عن حال الحسبان (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ... بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) يخبر أوسطها عن حال ثالثة هى حال العلم أو الإدراك اليقينى (بل الإنسان على نفسه بصيرة) كما يخبر الأخير عن حال رابعة هى حال الحب (كلا بل تحبون العاجلة) ، وبالتأمل يتبين لنا أن كل حال لاحقة من تلك الأحوال لا تنفى وجود سابقتها (الأمر الذى يترجح فى ضوئه كون الإضراب انتقاليا لا إبطاليا) ؛ إذ إن ما يريده السياق من إبراز تلك الأحوال هو الإخبار عن مثولها مجتمعه – رغم التباين بينها – فى نفس هذا الإنسان ، الأمر الذى يعنى قلق هذه النفس وتوترها بسبب تقلبها بين تلك الأحوال ، فكأن السورة الكريمة قد أرادت من خلال ظاهرة الإضراب المتكرر تفصيل الأسباب التى جعلت نفس هذا الإنسان (لوامة) .

إن هذه الأحوال النفسية الأربع (الحسبان – الإرادة – اليقين – الحب) قد رتبت فى نسق تطورى صاعد تنعكس فى ثناياه طبيعة الترقى الذى تفيده ظاهره الإضراب من جهة ، والمنهج الذى سلكه السياق فى استدلاله بحب هؤلاء المشركين للعاجلة على إبطال مرائهم حول يوم القيامة من جهة أخرى ولتجلية طبيعة هذا النسق نود أن نتوقف قليلا إزاء دلالة كل حال من تلك الأحوال :-

**ا - الحسبان ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾**

وبداية نود أن نلاحظ أنه بينما أوثر فعل الحسبان فى تلك الآية للتعبير عن جدل ذلك الإنسان فى حقيقة البعث أو الآخرة أوثر فعل الظن فى آية لاحقة للتعبير عن توقعه الموت أو الفراق فى لحظات الاحتضار (وظن أنه الفراق) . يقول الراغب فى التفرقة بين هاتين المادتين : «الحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فيحسبه ويعقد عليه الإصبع ، ويكون بعرض أن يعتريه شك ويقارب ذلك الظن ، ولكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر»(٣٣) ، ولعلنا نستطيع القول فى ظل هذا الفارق :

إن فى إيثار أولى الآيتين لفعل الحسبان (دون فعل الظن أو العلم مثلا) إشعارا بأن مراء ذلك الإنسان فى حقيقة البعث أو الإحياء بعد الموت لا يعززه يقين راسخ فى أرجاء نفسه ، إذ إن هذه الحقيقة ماثلة بالرغم عنه – لوضوح أدلتها اليقينية فى تلك النفس – غير أنه يتجاهلها أو يتغافل عنها فلا يخطرها أو يخطر أدلتها بباله عندما يندفع نحو هذا المراء ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ (يس : ٧٨)

٢ - **الإرادة** ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾

لقد سبق أن رجحنا أن الفعل ﴿ يفجر ﴾ فى الآية الكريمة هو من الفجر (الدال على تعجل هذا الإنسان ليوم القيامة) لا من الفجور ، وهنا نضيف أن فى إيقاع فعل الإرادة على هذا الفعل تعرية لحالة نفسية أدلّ من سابقتها (الحسبان) على مثول حقيقة الآخرة فى نفس هذا الإنسان ، فالإرادة – كما يقول الراغب – : (منقوله من راد يرود إذا سعى فى طلب شئ ، والإرادة فى الأصل قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل ، وجعل اسما لنزوع النفس إلى الشئ[٣٤] ....) . ومغزى ذلك أنه إذا كانت حال الحسبان تعرى إغفال ذلك الإنسان لحقيقة الآخرة الماثلة فى نفسه فإن حال الإرادة تعرى قلقه النفسى بسبب هذا المثول ، ذلك القلق الذى يقضّ مضجعه فيحرك فى نفسه داعية النزوع إلى تعجل يوم القيامة ، شأنه فى ذلك شأن الطالب المهمل الذى يتعجل يوم الامتحان فى محاولة يائسة للتخلص من شبحه المخيف الجاثم على صدره !!

٣ - **اليقين** ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره ﴾

لقد تعددت وجوه اختلاف المفسرين حول هاتين الآيتين : **فقد اختلفوا** فى إعراب الآية الأولى ، فقيل فى رأى : إن الإنسان مبتدأ وبصيرة خبره وعلى نفسه متعلق ببصيرة بتقدير على أعمال نفسه ، وقيل فى رأى آخر : إن بصيرة مبتدأ ثان والمراد به قرين الإنسان من الحفظة وعلى نفسه خبر المبتدأ الثانى مقدم عليه ، ومجموع الجملة خبر عن المبتدأ الأول (الإنسان) ، واختار أبو حيان – فى رأى ثالث – أن تكون بصيرة فاعلا بالجار والمجرور وهو الخبر عن الإنسان ،**كما اختلفوا كذلك** حول معنى بصيرة : فقيل إنها تعنى الحجة ، والتقدير : بل الإنسان حجة وبينة واضحة على نفسه وقيل إنها تعنى الشاهد والمراد شهادة جوارح الإنسان عليه يوم القيامة ، وقد استدل أصحاب هذا الرأى بقوله عز وجل ﴿ يوم

تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ ، كما اختلفوا حول الهاء في ﴿ بصيرة ﴾ فقيل إنها هاء المبالغة كالهاء في قولهم : داهية علامة ورواية . وقيل إنها تاء التأنيث على أساس أن اللفظة نعت لاسم مؤنث والتقدير : عين بصيرة أو حجة بصيرة ، **كما اختلفوا حول معنى لفظة ﴿ معاذيره ﴾** فقيل : هي جمع معذرة أو اسم جمع لها ، والمعنى أن الإنسان وإن إعتذر عن نفسه وجادل عنها وأتى بكل عذر وحجة فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه ، وقيل : المعاذير الستور واحدها معذار ، وهذا القول هو ما ذهب إليه الضحاك والسدىّ والفراء والمبرد وغيرهم ، والمعنى عليه : أن الإنسان وإن أسبل الستر ليخفى ما يعمل فإن نفسه شاهده عليه(٣٥) .

**وقبل أن نختار الرأى الذى نرتضيه فى كل وجه من وجوه هذا الخلاف نود الإشارة** إلى أن المفسرين قد اتفقوا - برغم هذا الخلاف المحتدم - على أن الآيتين الكريمتين تصفان حال هذا الإنسان يوم القيامة ، وأن الإضراب فى أولاهما هو عن مضمون الآية السابقة عليها ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وما أخر ﴾ وأن المعنى هو : ينبأ الإنسان بأعماله بل فيه ما يجزى عن الإنباء لأنه فى هذا اليوم يكون عالما بتفاصيل أحواله شاهدا على نفسه بما عملت . والواقع أن السياق لا يأبى - بل لعله يرجح - القول بأن هاتين الآيتين تصفان حالا من الأحوال التى تنطوى عليها نفس هذا الإنسان فى الدنيا ، وأنهما بذلك تمثلان حلقة فى سلسلة ذلك الإضراب الذى تكرر فى النصف الأول من سياق السورة فى سبيل تعرية نفس هذا الإنسان والكشف عن أحوالها وحقيقة دخائلها دحضا لمرائه حول يوم القيامة .

**إننا بناء على هذا الرأى الذى نميل إليه فى فهم الآيتين وفى تصور علاقتهما بالسياق** نرجح فى إعراب أولاهما الرأى القائل بأن الإنسان مبتدأ ، وبصيرة خبر ، وعلى نفسه متعلق ببصيرة ، غير أنا لا نرى ما يراه أصحاب هذا الرأى من أن ثمة مضافا محذوفا قبل النفس والتقدير : على أعمال نفسه ، فالتعلق فيما نرى هو تعلق البصر أو البصارة بالنفس ذاتها . وأما ﴿ بصيرة ﴾ فاننا نرجح القول بأن الهاء فيها للمبالغة وكذا القول بأن معناها : شاهد أو مراقب ، غير أنا نحس - والله أعلم - أنها بهذا القول لا تخبر عن شهادة الجوارح على الإنسان يوم القيامة بل عن شهادة هذا الإنسان على خبيئة نفسه فى الدنيا ، أعنى مراقبته أو إدراكه اليقينى للحقيقة الماثلة فيها والتى يحاول بمرائه جاهدا

إخفاءها ، وأما ﴿ معاذيره ﴾ فإننا نرجح بصددها الرأى القائل بأنها تعنى الستور ولعل فى الفعل ﴿ ألقى ﴾ ما يدعم هذا الترجيح ، إذ أن الإلقاء هو أكثر ملاءمة للستور لا للأعذار . والمراد بالمعاذير – بهذا المعنى – هو صور مراء هذا الإنسان حول يوم القيامة والتى قد تستر دخيلته وحقيقة ما تنطوى عليه نفسه تجاه هذا اليوم عن الآخرين .

**الآيتان الكريمتان فى ضوء ما تقدم** - إذن - تخبران عن أكثر أحوال هذا الإنسان تعرية لمرائه حول حقيقة الآخرة ، أعنى حاله عندما يثوب إلى نفسه فيصبح فى مواجهة صريحة معها لا مع الآخرين – لقد رصدت حال الحسبان غفلته عن مثول هذه الحقيقة التى يمارى حولها فى نفسه ، ثم كشفت حال الإرادة عن قلقه أو توتره النفسى بسببها ، أما تلك الحال فقد فضحت إدراكه اليقينى لعبثية مرائه حولها ، وإحساسه بأن كل صور هذا المراء ليست إلا ستورا لا تحجب وعيه بها ولا تخدعه – وإن حاول بها خداع الآخرين – عن إدراكها .

ما سبب مراء هذا الإنسان – إذن – فى حقيقة تدركها نفسه وتعيها بصيرته ؟

إنه حب العاجلة .. سبب البوار والخسران .

**٤ - الحب ﴿ كلا بل تحبون العاجلة ﴾**

لقد انتهى عند هذه الآية الكريمة – التى وقعت فى نهاية النصف الأول من السياق – خيط الإضراب المفيد فى خطواته الثلاث لمعنى الترقى ، وقد اقترن حرف الإضراب فيها كما نرى – خلافا للإضرابين السابقين – بأداة الردع والزجر ﴿ كلا ﴾ ، ولعل هذا وذاك – والله أعلم بمراده – للإشعار بأن حب هذا الإنسان لعاجلته هو أشد أحواله النفسية خطرا وأبعدها أثرا فى ضلال موقفه من الآخرة ، .. إنه يعلم – فى قرارة نفسه – بأن ثمة آخرة (لإدراكه لحقيقة الموت الذى يتخطف الأحياء من حوله من جهة ثم تيقنه من حقيقة إحيائه بعد عدم من جهة أخرى) ، غير أن علمه بها يظل بسبب حبه للعاجلة عاجزاً سلبيا لا يدفعه إلى الاستعداد لها بالأعمال الصالحة ، بل إن هذا الحب ليحفزه على النقيض من ذلك إلى المراء حول حقيقتها – غافلا أو متغافلا عنها – حينا ، ثم إلى تعجلها – حال تذكرها – فى محاولة للروغان أو التخلص منها حينا آخر ، .. وهكذا تظل نفس هذا الإنسان ﴿ اللوامة ﴾ تتقلب بين أحوالها الثلاث السابقة ، وكأنها فى هذا التقلب تدور فى خط دائرى محوره حب

العاجلة .

بقى أن نلاحظ أن الخط التطورى الذى سلكه الإضراب فى ترتيب هذه الأحوال الأربع (الحسبان – الإرادة – العلم أو اليقين – الحب) قد واكبه وتآزر معه خط تطورى موازٍ فى نسق التعبير أو طريقة بناء الجملة ، فبينما جاءت حال الحسبان فى صيغة الإستفهام الإنكارى المناسب لحال الغفلة :

﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾

جاءت حال الإرادة فى الإضراب الأول بصيغة المضارع الموائمة بدلالتها على التجدد لمعنى القلق وعدم الاستقرار النفسى : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ .

وجاءت الحال الثالثة فى الإضراب الثانى بصيغة الجملة الاسمية الملائمة بدلالتها على الثبوت لثبوت العلم ورسوخ الحقيقة المدْرَكة به فى نفسه : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾.

أما الحال الرابعة فى الإضراب الأخير ﴿ الحب ﴾ فقد حدث التحول فى مسار السياق عندها – كما أسلفنا – عن الإفراد والغيبة إلى الجمع والخطاب : ﴿ كلا بل تحبون العاجلة ﴾ .

ذلك التحول اللافت إلى عمق تجذر هذا الحب فى نفوس هؤلاء المشركين ، ومدى فعاليته فى مرائهم حول يوم القيامة .

**والله من وراء القصد ،**

# المصادر والمراجع


١- انظر : التفسير الكبير جـ ٣٠/٢٢ .

٢- الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢/ ١١٠ .

٣- لقد قيل فى ذلك : ﴿ أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط﴾ انظر : البرهان فى علوم القرآن جـ ١/ ٣٦ .

٤- انظر فى تلك الأحاديث : صحيح البخارى بحاشية السندى جـ ٣/ ٢١٠ ، وكذا : تفسير الطبرى جـ ١٠/ ١١٧ .

٥- انظر فى هذه الآراء : الإتقان فى علوم القرآن : جـ ٢/ ١١٠-١١١ ، التفسير الكبير : جـ ٣/ ٢٢٢ - ٢٢٣ ، روح المعانى : جـ ٢٩/ ١٤٢ - ١٤٣ .

٦- البرهان فى علوم القرآن : جـ ١/ ٣٧ .

٧- انظر : فتح البارى : جـ ٨/ ٥٤٩ .

٨- يلفت النظر أن النهى فى تلك الآية لا يتعلق بتحريك اللسان من أجل العجلة بالقرآن - كما فى آية القيامة - بل يتعلق بهذه العجلة ذاتها ، ولعل السر فى هذه المخالفة يرجع إلى ما ذكره ابن عباس فى الحديث المروى عنه فى سبب نزول هذا النهى فى سورة القيامة حيث قال ﴿ ... فكان إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه كما قرأه ﴾ (انظر : فتح البارى جـ ١/ ٣٩) فمغزى ما ذكره ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد توقف عن تحريك لسانه بالقرآن (وإن بقيت عادة التعجل لديه) منذ نزول سورة القيامة السابقة على سورة طه فى ترتيب النزول .

٩- لقد اختلف رواة الحديث فى بيان السبب فى تعجله صلى الله عليه وسلم بالقرآن : فلقد قيل : إنه بسبب رغبته فى زوال المشقة التى كان يعانيها عند نزوله ، وقيل كذلك : إنه بسبب خشيته أن ينساه ، وقيل أيضا : إنه بسبب حبه إياه ، وقد أشار الحافظ بن حجر إلى إمكانية الجمع بين هذه الأسباب قائلا : ﴿ لا بعد فى تعدد السبب ﴾ انظر فتح البارى : جـ ٨/ ٥٥٠ ، والأمر الذى تعنينا الإشارة إليه هنا هو أن هذه الأسباب مجتمعة لا تنفى السبب الذى نحن بصدد إثباته والذى يستطيع - دونها - الإجابة

عن تساؤل مؤداه : لماذا لم يرد النهى عن هذا التعجل فى القرآن إلا فى هذين الموضعين الذى جاء فيهما مقترنا بذكر يوم القيامة ؟

١٠- انظر : الكشاف : جـ ١٦٤/٤ ، التفسير الكبير : جـ ٢١٨/١٥ ، البحر المحيط : جـ ٣٨٥/٨ ، المحرر الوجيز : جـ ١٧٣/١٦ ، مجمع البيان : جـ ١٢٣/٦ ، التحرير والتنوير : جـ ٢٤٢/١٤ ، نظم الدّرر : جـ ٩٠/٢١ ، الجامع لأحكام القرآن : جـ ٩٤/١٩ ، روح المعانى : جـ ١٣٨/٢٩ .

١١- المفردات : ٣٧٣ .

١٢- انظر : روح المعانى : جـ ١٣٨/٢٩ ، التحريروالتنوير : جـ ٣٤٣/١٤ .

١٣- لعل من نافلة القول أن نشير إلى أن ما نلاحظه هنا من تضمن السؤال عن يوم القيامة معنى التعجل لا يتنافى مع ما أشار إليه غير واحد من المفسرين من أنه يتضمن معنى الاستبعاد ، إذ من المسلم به أن تعجل الإنسان لشئ ماهو سبب إحساسه ببعده .

١٤- انظر : الكشاف : جـ ١٦٥/٤ ، التفسير الكبير جـ ٢٢٩/١٥ ، روح المعانى : جـ ١٤٦/٢٩ .

١٥- انظر المادة فى : لسان العرب ، القاموس المحيط ، المعجم الوسيط .

١٦- المفردات : ٤٦ .

١٧- انظر المادة فى لسان العرب ، المعجم الوسيط ، وكذا : المفردات : ١٠٦ .

١٨- انظر : الوسيلة الأدبية : جـ ٢ - ١٤٦ .

١٩- هذا على قراءة الفعلين بالتاء (تحبون - تذرون) أما على قراءتهما بالياء فإن التحول أو الإلتفات يكون عن طريق الإفراد إلى طريق الجمع فحسب .

٢٠- فيما عدا قوله عز وجل : ﴿ أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى ﴾ ، فلقد خرجت هاتان الآيتان عن طريق الغيبة غير أنهما سارتا على طريق الإفراد .

٢١- انظر : نظم الدرر: جـ ١٠٤/٢١ .

٢٢- لأن الإقبال فى تلك الحال لا يتنافى مع الإيمان بالآخرة والاستعداد لها بصالح الأعمال ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ... ﴾ (القصص : ٧٧) .

٢٣- وهذا المسلك هو ما يصوره قوله سبحانه : ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ﴾ (الإنسان : ٢٧) .

٢٤- انظر : بصائر ذوى التمييز : جـ ٢٠٩/٤ ، الكشاف : جـ ١٦٥/٤ - ١٦٦ ، تفسير أبى السعود : جـ ٦٨/٩ .